ولذلك قال بعضهم من رآني في البداية صار صديقا ومن رآني في النهاية صار زنديقا اذ النهاية ترد الاعمال الى الباطن وتسكن الجوارح الا عن رواتب الفرايض فيتراءى الى الناظر انه بطالة وكسل واهمال وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة للذكر الذي هو افضل الاعمال على الدوام وتشبه الضعيف بالقوي فيما يرى في ظاهره انه هفوة يضاهي اعتذار من يلقي نجاسة يسيرة في كوز ماء بان اضعاف النجاسات قد تلقى في البحر والبحر اعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز اجوز ولا يدري المسكين ان البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب النجاسة باستيلائه الى صفته والقليل يغلب الكوز ويحيله الى صفته وبمثل هذا اجوز للنبي صلى الله عليه وسلم ما لم يجوز لغيره حتى ابيح له تسع نسوة اذ كان له من القوة ما يتعدى منه صفة العدل الى نسائه وان كثرن واما غيره فلا يقدر على العدل بل يتعدى ما بينهن من الضرار اليه حتى ينجر الى معصية الله في طلب رضاهن فما افلح من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة ان لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من انواعها الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالاهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط بالبعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس اعداء ما جهلوا قال تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم قال الشاعر ۞ ومن يك ذا فم مر مريض ۞ يجد مرا به الماء الزلالا ۞ فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد الى الله تعالى او معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود والقوام بها حفظة كحفظة الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته اجر في الاخرة اذا قصد به وجه الله تعالى

الوظيفة السادسة ان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم ان يأخذ من كل شيء احسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه الى استكمال العلم الذي هو اشرف العلوم وهو علم الاخرة اعني قسمي المعاملة والمكاشفة فغاية المعاملة المكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله ولست اعني به الاعتقاد الذي تلقفه العامي وراثة وتلقفا ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصينه عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين وهو ثمرة نور يقذفه الله في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي الى رتبة ايمان ابي بكر الصديق رضي الله عنه الذي لو وزن بايمان العالمين لرجح كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم فما ان ما يعتقده العامي ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العامي الا في صنعة الكلام ولاجله سميت صناعته كلاما كان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي وساير الصحابة حتى كان يفضلهم ابو بكر بالسر الذي وقر في صدره والعجب ممن يسمع مثل هذه الاقوال من صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ثم يزدري ما يسمعه على وفقه ويزعم انه من ترهات الصوفية وان ذلك غير معقول فينبغي ان تتئد في هذا فعنده ضيعت راس المال وكن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين فلا يرشدك اليه الا حرصك في الطلب وعلى الجملة مقبول صح

فاشرف العلوم

فاشرف العلوم وغايتها معرفة الله وهو بحر لا يدرك منتهى غوره واقصى درجات البشر فيه رتبة الانبياء ثم الاولياء ثم الذين يلونهم وقد روي انه رؤي صورة حكيمين من الحكماء والمتعبدين في مسجد وفي يد احدهما رقعة فيها ان احسنت كل شيء فلا تظنن انك احسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم انه مسبب الاسباب وموجد الاشياء وفي يد الاخر كنت قبل ان اعرف الله اشرب واظمأ حتى اذا عرفته رويت بلا شرب

الوظيفة السابعة ان يعرف السبب الذي يدرك به شرف العلوم وان ذلك يراد به شيئان احدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة احدهما الحياة الابدية وثمرة الاخرى الحياة الفانية فيكون علم الدين اشرف ومثل علم الحساب وعلم النجوم فان علم الحساب اشرف لوثاقة ادلته وقوتها واذا نسب الحساب الى الطب كان الطب اشرف باعتبار ثمرته والحساب اشرف باعتبار ادلته وملاحظة الثمرة اولى فلذلك كان الطب اشرف وان كان اكثره بالتخمين وبهذا يتبين ان اشرف العلوم العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم فاياك ان ترغب الا فيه وتحرص الا عليه

الوظيفة الثامنة ان يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه وتعالى والترقي الى جوار الملأ الاعلى من الملائكة المقربين ولا يقصد به الرياسة والمال ومماراة السفهاء ومباهاة الاقران فاذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الاقرب الى مقصوده وهو علم الاخرة ومع هذا فلا ينبغي ان ينظر بعين الحقارة الى ساير العلوم اعني علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما اوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الاخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين لها والغزاة المجاهدون في سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك واحد منهم عن اجر اذا كان قصده اعلاء كلمة الله دون حيازة الغنايم فكذلك العلماء قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال تعالى هم درجات عند الله والفضيلة نسبية واستحقارنا الصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين ولا تظنن ان من نزل عن الرتبة القصوى فهو ساقط القدر بل الرتبة العليا للانبياء ثم الاولياء ثم العلماء الراسخين ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن قصد الله بالعلم اي علم كان نفعه ورفعه لا محالة

الوظيفة التاسعة ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد كي لا يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك الا شانك في الدنيا والاخرة واذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الاخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصاير ما يجري مجرى العيان فالاهم ما يبقى ابد الاباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والاعمال سعيا الى المقصد ولا مقصد الا لقاء الله ففيه النعيم كله وان كان لا يعرف في هذا العالم قدره الا الاقلون فالعلوم بالاضافة الى سعادة